

نحو طلائع إسلامية واعية

الشباب.. وحرّية الاختيار

د. رشدى فكار

كتاب المختار

الكلمة الطيبة صَدقة

الشباب وحرّية الاختيار

د. رشدى فكار



بسم الله الرحمن الرحيم

● إن قضية الشباب الأساسية فى هذا العصر هى قضية حرية الاختيار امام تحديات معقدة ، متعددة ومتداخلة .. وفى نفس الوقت متناقضة .. ويمكننا ان نجمل القضية فى اربع اختيارات رئيسية .

- حرية الاختيار العقائدى .

- حرية الاختيار المعيشى بين التطلع الى الرفاهية او الملل منها .

- الاختيار الأسرى لشريك وشريكة الحياة .

- حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات الاجتماعية .

الدكتور رشدى فكار

الاختيار العقائدى

يعانى شباب هذا العصر ــ على مختلف نزعاته وانتماءاته البيئية أو الطبقية أو الحضارية ــ من قضية حرية الاختيار العقائدى .

وقضية الاختيار العقائدى قضية هامة .. تمت حولها مزايدات باسم الحماس المنصب على شكلية الاختيار اكثر منها على الجوهر ، تسببت فى استنزاف قدرات خلاقة عن طريق المجتمعات المتقدمة صناعيا .. فلم تكتف هذه المجتمعات باستنزاف ثروات الشعوب المغلوبة على أمرها ونهبها خلال الأستعمار . بل حاولت أن توقف تقدمها الفنى فى النمو عن طريق استنزاف قدراتها الفكرية الخلاقة فى مواجهات حول قضايا

صورية ، حول الألوان والأشكال .. فكل مجتمع صناعى من الدول العظمى يسعى أن يلون شعوبا بلونه ويصبغها بصبغته عقائديا وفكريا حتى يحتفظ بها فى دوائر نفوذه ويحقق بذلك مصالحه أولا وقبل كل شىء .

ان الأيدلوجيات فى النصف الاخير من القرن العشرين تتجه أكثر فاكثر فى الدول المتقدمة الى المصلحية ، بمعنى انه لم يعد لها هدف قيمى انسانى بقدر ماهى مجرد تبرير لمصلحة ، «نفع استهلاكى أو ربح انتاجى» .

وهكذا تتقلب الايدلوجيات وتتلون ليس فقط فى العام الواحد .. وانما فى اليوم الواحد أيضا تمشيا مع المصالح من خلال تصريحات للمسئولين فى الدول المتقدمة الكبرى صناعيا ، ولكن ليس معنى ذلك كذباً أو نسياناً وانما المصلحة تتطلب هذا التلون .. واعتقد البعض فى صفاء هذه الأيدلوجيات التبريرية المصلحية على أنها أيدلوجيات قيمية تعبر عن مبادىء انسانية

أصيلة ، فتبنوها ثم راحو ضحية لها .. وكانت خيبة الأمل فى اكثر المواقف والمواجهات .

لنتدبر ونعمق النظر فى المجتمعات الصناعية الكبرى .. تجرى الانتخابات تلو الانتخابات ، وتنتصر شعارات على شعارات ، وحقائق المجتمع هي هي : المحافظون والعمال فى انجلترا ، الديمقراطيون والجمهوريون فى الولايات المتحدة ، وحتى فى المجتمعات التى تزاول مايسمى بالديمقراطية المباشرة فى ظل النظم الموجهة نجد ايضا ان الأيدلوجيات تبريرية مصلحية ، بمعنى انها تنطلق من مصالح مجتمعاتهم وضرورياتها الفورية اكثر من انطلاقها من اطار قيمي تعبر عنه ، ومن هنا كانت المضاربات وسيطرة الضباب على حقيقة الرؤية ، وظن البعض أن هذه الدول تتنكر لوعودها وقيمها فى بعض الأحيان ، ولكنها فى الحقيقة تعبر ـــ بكل بساطة ـــ عن واقع حقيقتها ودفاعها عن مصالحها ومتطلباتها . ومستودعات الشعارات موجودة .. تخرج منها الشعار المناسب للموقف المناسب ..

فعلى شباب مجتمعاتنا الفتية ان يعى جيداً ان مصالحه بدورها تنطلق من واقع اسلامى المبادىء والاتجاهات فى اشعاعه واحكامه .

ان بعض الشباب فى مجتمعاتنا ــ يعمل لصالح غيره اكثر مما يعمل لصالح أرضه وشخصيته واصالته التراثية وطموحاته المشروعة ، وربما عن حسن نية أو براءة فى التصور ، أو عدم دراية بطبيعة المتناقضات .. وعلينا ان نطرح قضية حرية الاختيار الايدلوجى فى اطارها الصحيح ، اننا نعيش واقع الأيدلوجيات المصلحية النفعية ، المنطلقة من حاجة المجتمعات الكبرى الى تبرير احتكارها للمجتمعات البشرية الأخرى بفضل شعارات تكتيكية تعتمد على فورية المواقف وتلقائية الاقناع ، وهى فى نفس الوقت تعنى تحقيق استراتيجية شاملة .. لا يتعدى دور الايدلوجيات فيها مجرد الوسيلة للتغلب على المتناقضات الناشئة عن تعدد المصالح .

لقد أصبح النفاق والغش والكذب والتذبذب

ضربا من التكتيك المشروع فى الأيدلوجيات المعاصرة للدول الكبرى .. وليس على مستوى الفرد وانما على مستوى الجماعات بل والمجتمع بأكمله ، وأصبحت الدول الكبرى تبيت سوء النية وتخطط لها بالنسبة للدول المغلوبة على أمرها ، وتطلق عليها «الاستراتيجية الشاملة» مستغلة فى ذلك تخلف العقلية الجماعية وجهلها بحقائق الأمور ، بل هى تستفيد من جهل الشعوب واخطائها لكى تدعم احتكارها وسيطرتها وعلى شبابنا أن يكون متدبرا وواعيا بهذه المتناقضات التى تحيط به ، وأن تكون ايدلوجيته الحقه هى الايدلوجية التقدمية المنطلقة من ذات اصالته وتراثه ومتمشية مع معطيات بيئته الأساسية ومتجاوبة مع قيمه الحضارية الاسلامية العريقة ، ان أيدلوجيتنا ــ مهما تنوعت المشارب وتعددت الرؤى فى سبيل تحقيقها ــ عليها أن تكون أيدلوجية تهدف الى الاعتزاز بهويتنا الاسلامية .

بين التطلع الى الرفاهية والملل منها

يلاحظ فى المجتمعات الصناعية ، لدى بعض فئات الشباب ، الملل من الرفاهية ، ورغبة فى العودة الى حياة الطبيعة (الهيبية والبرفوس وغيرها) وفى أغلب الأحيان ــ من باب المحاكة والتقليد ــ يتجه بعض شباب الدول الفتية النامية وباسم حرية الاختيار أن يتبنى هذا الاختيار ، اختيار المال والرفض ، غير واع باختلاف البيئة والمحتوى وحاجة مجتمعه الى قدراته ومشاركته فى فترة انطلاقه .

وهنا نتساءل : كيف يمل انسان فى بداية الطريق ؟ ان كان لبعض فئات شباب العالم المتقدم إن تمل الرفاهية لأنها تذوقتها حتى الشبع ، فكيف يمل انسان لم

يتدوق بعد الرفاهية ؟! اللهم الا اذا كان مريضا ، اذ العكس هو الصحيح ، ظاهرة الملل ان وجدت لدى بعض شباب مجتمعاتنا ، علينا ان نعالجها على انها ظاهرة مرضية أكثر منها ظاهرة صحية تدل على تعمق المجتمع فى الرفاهية وتنوعها .. ورغم وجودها فى بعض المجتمعات الصناعية الانتاجية الكبرى فهى ظاهرة معزولة لدى بعض الفئات ، ولم تحد من قدرة هذه المجتمعات فى الاندفاع والتدريج فى مراحل التقدم بصفة عامة ..

انها بالنسبة لمجتمع صناعى متقدم تعبر عن سخونة الدفع والحركة والحاجة الى التهوية كما هو الحال لعربة قطعت مسافة كبرى من الطريق دون توقف ، أما عربة لم تدر محركاتها بعد أو فى بداية تحركها وتحتاج الى تهوية لمحركاتها ، فهذا لايعنى سخونة بقدر مايعني عدم الرغبة فى التحرك اساسا ..

وعلى شبابنا أن يكون طموحا متطلعا ، وله الحق فى ذلك ، له الحق فى أن يحقق مجتمع الرفاهية والحياة الكريمة بعد مسيرة طويلة من المعاناة فى فترات الاستعمار .. ومع هذا ، علينا أن نضيف : ان للرفاهية حدوداً ، بمعنى ان الانسان لا يتحول الى عبد لرفاهيته المادية ويصبح مثله كمثل المنبت والمتهالك على الدنيا .. «فلا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى» ..

ان الرفاهية عندما تصبح هدفا فى حد ذاتها تولد مزيدا من الحاجة إليها ، فيظل الباحث عن المزيد شأنه شأن المتهالك الذى يلهث ولا يرتوى ، وكلما ترفه الانسان وجعل الترفة غايته ، وليس تحقيق مثل اسمى من الرفاهية ، يخضع ويستلب باسمها ، ويصبح عبدا ميسرا لها ، ولا يستيقظ الا فى لحظة الاحتضار والاستعداد لدخول القبر ، حيث مثواه الاخير وهو مقر لا يتطلب الرفاهية وانما يتطلب ماحققه من عمل صالح وبناء باقٍ

ابد الدهر بعده ، فعليه أن يكون وسطيا فى رفاهيته كما أرشدنا الى ذلك ديننا الحنيف ، حين جعل الوسطية هى الحل الأفضل للحياة الكريمة ، حتى وسطية الانفاق ، ووسطية المشى ، والكلام .. وما علينا الا أن نراجع الآيات الكريمة التى وردت فى سورة الاسراء والسور الاخرى التى تحث على الوسطية ، وما أروع ما يحتويه معنى (امة وسطا) ـ البقرة ١٤٣ ـ فى كل جوانبه المتعددة من حقائق بناءة وأصيلة .. ان وسطية الرفاهية تعطى لنا حقيقة التذوق وصدق الشعور بها .. انها رفاهية فى ظل حياة كريمة دون الاستلاب بها ، وسطية واعية تجعل منها وسيلة للحياة لا هدفا غائيا لها .

الاختيار فى بناء الأسرة

ان وعى الرجل حاليا بحقيقة دور المرأة ، ووعى المرأة بحقيقه دورها ،وبما طرأ على دور الرجل وعلى دورها من تغيرات نتيجة لمتطلبات العصر ــ قد يساعد كثيرا فى صحة الاختيار وصلاحه ونجاحه .. فالشاب فى النصف الاخير من القرن العشرين عليه أن يعى أن طبيعة تعليم المرأة وزمالتها فى المجتمع ، إلى جانب مشاركتها له فى الأسرة ، قد دعم اطار الحقوق ، وعادل بين اطار الواجبات بالنسبة للرجل .

فطبيعة الحياة فى هذا العصر قد حدت عمليا من حقوقه واتجهت به الى المعادلة مع الواجبات ، وذلك

حينما اصبح للمرأة دور مزدوج فى الأسرة والمجتمع ، فى الأسرة كشريكة ، وفى المجتمع كعضو ، وهذا الدور المزدوج كثيرا مايلتبس على المرأة والرجل على حد سواء فيفهم المجتمع على مستوى المشاركة وتفهم الأسرة على مستوى العضوية ، وكثيرا ما يطغى الدور المجتمعى على الدور الأسرى بل ويذيبه .. بينما العكس هو الصحيح أى أولوية الدور الأسرى على الدور المجتمعى ، فالدور الأسرى سابق للدور المجتمعى وليس العكس ، فالمرأة قبل ان تكون عضواً فى المجتمع هى ام لاسرة وزوجة لزوج والحق الاجتماعى مكمل وليس اساسياً ، والا اهتزت كل المعايير وتقوضت الأسرة ، وبالتالى انهار المجتمع الذى تشكل الأسرة خلاياه الاساسية ، ولن تفقد المرأة آنذاك فقط دورها الاجتماعى ، بل المجتمع بأسره .

وهنا نطرح مشكلة ملموسة جاءت نتيجة لالتباس دور المرأة المزدوج ، وهو التباس يقود فى النهاية ــ

نظرا لعدم الوعى ــ الى الانعكاس فى الأدوار ، فيطبق الرجل أو المرأة دوره الأسرى فى المجتمع ودوره المجتمعى فى الأسرة ، حيث يفهم الدور المجتمعى تحت شعار المشاركة ويفهم الدور الأسرى تحت شعار العضوية .. وهكذا تصبح العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع علاقة مشاركة حتى فى دخائل الأمور ، وبالتالى تتحول العلاقات المجتمعية فى المكاتب والمؤسسات وبقية أجهزة المجتمع بين الرجل والمرأة إلى علاقات مشاركة أسرية ؛ مجاملة وحنانا وعطفا وحتى ملاطفة وحباً ، بينما تتحول العلاقات الأسرة فى المنزل إلى مجرد علاقات عضوية فى مؤسسة لا أكثر ولا أقل لتبادل المصالح والمحاسبات وهى من خصائص العلاقات المجتمعية .

وهذا مانعرفه بالتباس الدور فى المجتمعات الحديثة وانعكاساته ، وعلى شبابنا أن يرى الحقائق ويعى حقيقة المعايير البيولوجية والعاطفية والمصلحية ، وحقيقة

الدور الأسرى ، وحقيقة الدور المجتمعى ، والعلاقة بين الدورين بما يحقق بقاء الأسرة واستقرارها . فالأسرة مشاركة وتكامل واندماج ، مراعاة وحنان وعاطفة ومجاملة وتفانى من كل طرف فى سبيل إسعاد الطرف الآخر ، بينما المجتمع عضوية وزمالة فى سبيل خدمة الصالح العام وفى ظل الاحترام والتقدير المتبادل ، وبهذا تستقر الأسرة وينهض المجتمع .

الاختيار السلوكى

إن حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات لابد وأن يتمشى مع واقع العصر الذى تزاول فيه هذه العلاقات ، وواقع نهاية القرن العشرين واقع معقد فى علاقاته الاجتماعية نظراً لكثافة هذه العلاقات وتداخلها وتعدد أبعادها ، ومن ثم حتى يصبح السلوك ناجحاً

لابد من التروى والابتعاد عن المجازفات الفورية والتلقائية فى اتخاذ المواقف وتبنى الاتجاهات ، لابد للسلوك من الاعتماد على سببية .

وعلى تحديد الهدف ، وان يخفف من حدة التناقض بفضل المرونة فى المواجهة والتبصر وعدم التذبذب فى المبدأ والاتجاه .

ان الاصرار على الموقف يكون بعد استيعاب الحقائق والاقتناع الواعى بها والالتزام بالتعليل ، ولا يكون منطلقا من العناد بمعنى الاصرار لمجرد الاصرار ، وحين يبدو خطأ الموقف يكون الرجوع الى الحق والاعتذار عن الخطأ دون حرج أو شعور بنقص ..

والموقف الحق هو الموقف الموضوعى المسبب برؤية وتحليل مقنع فى جوهره ..

ولاشك ان طبيعة عصرنا هذا ، عصر الأسس

العلمية ، والمعرفة والتقدم والتصنيع ، تحتاج الى مزيد من الممارسة فى السلوك الاجتماعى والأسرى ، والشخصية التى تتبنى الممارسة والتروى هى أكثر قربا الى النجاح من الشخصية الانفعالية المجازفة .. لقد اختفت الفروسيات العضلية لتتفجر قدرة العقل المتحكمة فى الأشياء .. واصبح الاكثر سيطرة هو الأكثر وعيا وعلما وتفهما وممارسة وروية ، حيث تقل مواطن زلله وتندر احتمالات انزلاقه .

ان السلوك الواعى الممارس المعبر عن مواقف اصيلة هو السلوك الذى يصل الى غايته ويكون له الاستمرار والدوام بفضل عدم تحكم النزعات الفورية فيه أو الايماءات العشوائية ، ولما فيه من قدرة على تغاضى صغائر الأمور وتوافهها ، انه سلوك يترفع عن الشكليات والعفويات ..

هذا السلوك الواعى هو الذى حثنا عليه ديننا

الحنيف وهو الذى جسده لنا رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ بسلوكه الشخصى فى عصر النبوة ، وهو الذى دعانا الى اتباعه فى كل المناسبات .

وعلى شبابنا ان يتامل ذلك ، وأن يتمثل المبادىء القرآنية فى سلوكه ويقتدى بالرسول ﷺ فى تطبيق هذا السلوك ، وكيف كان صلوات الله وسلامه عليه يقنن العلاقات بالمعايير الصحيحة الواعية ، ملتزما بمواقف واهداف سليمة أصيلة بعيدة عن العفويات .. ليس فقط فى علاقاته مع من آمن به ، بل حتى مع عدوه منطلقا من المبدأ القرآنى السامى :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) النحل : ١٢٥ .

الآيات القرآنية .. والأحاديث النبوية .. وسلوك الرسول ﷺ وصحبه ، نموذج خالد لشبابنا اذا ما

اراد البحث باسم حرية الاختيار لسلوكه الأسري ، والمجتمعى فى علاقاته .. سواء بالنسبة لتأصيل شخصيته .. او تدعيم روابطه الأسرية والاجتماعية .. ليحقق مافيه الخير لأمته .. بل وللانسانية كلها .